أحمد بن سعيد مؤسس الدولة البوسعيدية المعاصرة في عمان

محمد بن سعيد بن محمد اللواتي

سلطنة عمان

Ahmad Bin Saeed the Founder of the Albu Saeedya the Modern State in Oman

Researcher. Muhammad Bin Saeed Bin Muhammad Al-Lawati

Monarchi of Oman

Abstract

Ahmad Bin Saeed played an important role in the foundation of the the modern State in Oman after he had united the tribes when he was appointed a governor "wali" of the desert.

في منتصف القرن الثامن عشر ونتيجة للحروب الأهلية والحركات الانفصالية مرت تركستان (حالياً منطقة شيانجانغ الصينية وجمهوريات آسيا الوسطى الخمس) بأزمة اقتصادية وسياسية. وبعد 140 من حكم سلالة "الأستراخانيين" مرت بفترة من الانحدار، وكان آخر حكام هذه الأسرة "أبو الفيض خان" ضعيفاً للغاية. وقد وصف العالم الشهير والمفكر والكاتب عبد الرؤوف فطرات ببراعة المآلات المحزنة لسلالة الأستراخانيين في مآساة "ابو الفيض خان". وفي هذا الوقت كان يحكم إيران نادر شاه الذي شن حملات على القوقاز وتركستان وأفغانستان والهند وغيرها من البلدان.وفي العام 1740م وهو في طريقه من بلخ الى شارجو توجهت قوات نادر شاه الى بخارى ونتيجة لحملة نادر شاه على بخارى تم تغيير السلالات الحاكمة واستلمت سلالة "المنغيتيين" الحكم في بخارى.

استطاع نادر شاه خلال 12 عاماً من حكمه (1747–1736) توسيع اراضيه على حساب احتلال أو غزو اراضي الدول المجاورة، وبعد مقتله قام أحد قادته من قبيلة "عبدال" ويدعى أحمد شاه بالذهاب الى قندهار، وجمع زعماء القبائل الأفغانية حوله، ونصب نفسه ملكاً على افغانستان. وهكذا اسس أحمد شاه ولأول مرة الدولة الوطنية الأفغانية من 1747–1748م.

وفي نفس الوقت تقريباً، كانت عمان تشهد صراعات مريرة، وفي سياق هذه الصراعات الداخلية والشقاق طلب الحاكم العماني سيف بن سلطان المساعدة من مكران، إلا أنه هُزم من قبل جيش الإمام بلعرب بن حمير فلجأ سيف إلى نادر شاه الذي تلقف طلب المساعدة بلهفة وسرور خدمة لخططه التوسعية لفرض سيطرته على الخليج بغطاء شرعي[1]. وفي عام 1737م حطت قوات الشاه البحرية الإيرانية بالقرب من (صحار). وفي ذلك الوقت كان زعماء القبائل والزعماء الدينيون يخشون نشوب حرب أهلية. فقرروا إعادة الاستقرار عبرإعادة الإمام سيف الى الحكم، إلا أن ذلك لم يوقف استمرار الصراع، حيث أقال مجلس العلماء والشيوخ الإمام سيف من الحكم، إلا أنه أعيد ثانية إليه بعد أن تم اقناع بلعرب بن حمير بترك منصب الإمامة، ولكن الأمور عادت الى سابقها فتم تنحية سيف مرة أخرى عام 1741م، وتنصيب الإمام سلطان بن مرشد اليعربي إماماً جديداً للبلاد، فسارع الإمام سيف الى طلب المساعدة مرة أخرى من الفرس الذين اشترطوا عليه الالتزام والاعتراف بتبعية عمان للفرس.وفي احدى المعارك التي جرت بين الفريقين أصيب الإمام سلطان بن مرشد اصابات بليغة توفي على أثرها، كما توفي ايضاً الإمام سيف المدعوم من الفرس جراء مرض آلم به، وحدث فراغ في البلاد، وحاول البعض ملئ الفراغ وتعيين بلعرب بن حمير إماما للبلاد، إلا أن أحمد بن سعيد استطاع الانتصار على بلعرب بن حمير[2] والتفت القبائل حول أحمد بن سعيد البوسعيدي الذي كان قد عين والياً على صحار من قبل الإمام سيف بن سلطان، وفعلاً بايعت القبائل الإمام أحمد بالإجماع الذي أرسى دعائم حكم دولة البوسعيدية والتي لا تزال تحكم البلاد حتى الآن.

1) سرجي بليخانوف، مصلح على العرش (باللغة الإنجليزية)، لندن، 2004م، ص50 -
2) الشيخ العلامة المرحوم سالم بن حمود السيابي، عمان عبر التاريخ، الجزء الرابع، ص308.

ولد الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي في قرية (أدم) على أطراف الصحراء من عائلة مشهورة بالتجارة، وقد أظهر الإمام أحمد من خلال تولي الحكم نشاطاً وارادة استثنائية، حيث فصل بين السلطات الدينية والسياسية، ولعب دوراً أساسياً في توحيد البلاد بعد أن دحر الفرس، وكان أمام الإمام اختياران صعبان إما الاستناد الى أفضل تقاليد الماضي والميل الى مركزية السلطة وانهاء الصراعات الداخلية، واستغلال المساعدات الخارجية بحنكة، وإما ترك كل شيء على ما هو واتباع طريق المصالحة مع الخصوم، وقد اختار الأول وأبدى صلابة وثبات وحزم، وبدأ بإنشاء دولة عصرية جديدة، وسار على طريق التغلب على العقبات، ووضع أمامه هدفاً استراتيجياً وهو استعادة القوة والزخم السابق للبلاد، وخطوة خطوة سار الى الأهداف المرجوة وهي:

. التفاعل والتواصل مع القبائل وبينها والتعاون معها.

. التحالف بين القبائل في عملية دعم الحكومة المركزية لتحقيق التقدم والاستقرار في المجتمع.

ويعتبر تولي الإمام أحمد بن سعيد الحكم في عمان نقطة تحول مهمة في التاريخ العماني الحديث[1]، حيث سار نحو التعددية السياسية، وكان أكثر حرصاً لاستخدام الانسجام والتفاهم المتبادل بين القبائل في سبيل تعزيز حكومته.ووضع أمامه هدف استخدام الوسائل العسكرية والاقتصادية والثقافية والروحية بفعالية من أجل توطيد وحدة الشعب والأمة.

يشهد المعاصرون بأن أحمد بن سعيد أسس دولة مركزية قوية تهدف الى خلق مجتمع مستقر ومزدهر، علاوة على ذلك فقد أصبحت عمان في عهده دولة مركزية بالمعنى الحقيقي للكلمة.وذاع صيت الدولة العمانية ونمت دولياً، كما أصبحت تبرم العقود والاتفاقيات مع الدول الأخرى والمجاورة لها.ونما بالذات في عهد أحمد بن سعيد دور وأهمية مدينة مسقط كمركز تجاري واقتصادي وثقافي في منطقة الخليج.

كما أصبحت مسقط في نهاية القرن الخامس عشر الميناء الأول لعمان[2] ليس فقط بالنسبة لدول الخليج العربي، بل ايضاً لدول أخرى حيث ما كانت ترسو في هذا الميناء سفن الدول المتقدمة والأوروبية.ونتيجة للتنمية الاقتصادية والتجارية والسياسية المتسارعة لعمان فقد تم اقامة علاقات دبلوماسية مع دول المحيط الهندي ودول أوروبية كبرى.حيث كان الإمام أحمد بن سعيد قائداً حكيماً وذو نظر بعيد، وقد اعترف العديد من زعماء الدول رسمياً بأن عمان بلد قوي ومؤثر في العالم، كما ابرمت العديد من الحكومات العربية والغير عربية اتفاقيات تحالفية مع حكومته.وفي ظل علاقات السوق والتجارة والتنافس بين القوى الكبرى في منطقة الخليج وتحديداً في ميناء مسقط، غالباً ما كان يُشاهد السفن من فرنسا وبريطانيا والهند والدول البحرية الأخرى[3].

واستناداً لرأي الخبير الروسي س.بليخانوف "فكانت لديه (أي الإمام) الذوق المتميز والبصيرة لتحديد الحلفاء بشكل صحيح، من أجل جلب المنفعة لبلاده من خلال تنافس الدول الكبرى" وقد بدا في ذلك الوقت يظهر الترابط بين الدول والشعوب الكبرى، وكذلك المواجهة بين بريطانيا وفرنسا في أوروبا مما أدى لظهور تحالفات كبيرة في الشرق.وبما أن البريطانيون هم ومنذ فترة طويلة حلفاء للإمبراطورية العثمانية، وأملاً في المساعدة لإضعاف موقف فرنسا في البحر الأبيض المتوسط، عليه فقد بدأت فرنسا بالتقارب مع بلاد فارس كثقل كبير لمواجهة الأتراك، وبما أن الفرس هم المنافس الرئيسي لاستقلال عمان فإن الاتحاد مع الإمبراطورية العثمانية أصبح طبيعياً بالنسبة لعمان، وقد تجلى هذا في حملة الإمام أحمد لفك حصار الفرس عن مدينة البصرة.حيث أرسل الإمام أحمد بن سلطان أسطولاً بحرياً بقيادة ابنه هلال، يتقدمهم الطراد العماني "الرحماني"، حيث استطاع هذا الأسطول فك الحصار عن المدينة بجيش يضم بين 10.15 الف مقاتل، والحق الهزيمة بالجيش الفارسي . فسرت الدولة

1) جيريمي جانس ونيكولاس ريدآوت، من تاريخ عمان الحديث (كتاب باللغة الانجليزية)، جامعة كامبريدج 2015م

2) حصاد الندوة الدولية لطرق الحرير العظيم، جامعة السلطان قابوس، ص16، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة، وكذلك تاريخ عمان الحديث ص33.

3) سرجي بليخانوف، مصلح على العرش (باللغة الإنجليزية)، لندن 2004م، ص55.

العثمانية . واجرت له راتباً سنوياً كان لا يزال يتقاضاه أئمة مسقط إلى أواخر القرن التاسع عشر، كما قصد الطراد الرحماني قراصنة البحر الهندي وقتل زعيمهم، وعاد الاستقرار إلى المنطقة[1].

وفي نفس الوقت عمل إلامام على توازن السياسة ومساواتها بين فرنسا والمملكة المتحدة. وقد تجلت هذه السياسة الحكيمة فيما يتعلق بالدولتين العظمتين أكثر من مرة، وعلى سبيل المثال: هاجمت السفن الفرنسية خلال حرب السبع سنوات السفن البريطانية وذلك لتعطيل الاتصالات بين بريطانيا وممتلياتها التجارية الهندية ومستعمراتها، وكان بحر عمان مسرحاً للمعارك أكثر مرة، وفي ذات المرات تابعت السفن الفرنسية السفن البريطانية بالقرب من القلاع والحصون العمانية وأطلقت النار عليها، عندها فتحت المدافع العثمانية النار على منتهكي حرية الملاحة أي على السفن الفرنسية.

ولذلك، فإن القرار الذي اتخذه حاكم عمان لا يهدف فقط الى حماية المصالح التجارية للدولة، بل أيضاً الى ما تملي عليه حسن الضيافة العمانية وتوفير الحماية لكل ضيف. وعندما استولت سفينة فرنسية على سفينة عمانية تحمل بضائع عائدة لبريطانيا، استولى العمانيون على سفينة فرنسية في مسقط رداً على ذلك، ومع ذلك لم يؤدي ذلك الى تفاقم العلاقات الفرنسية العمانية، وقد توجه الإمام أحمد بن سعيد الى الملك الفرنسي لويس السادس عشر باقتراح افتتاح بعثة فرنسية في مسقط، مؤكداً على العلاقات الودية بينهما، كما تحولت عمان في عهد أحمد بن سعيد الى امبراطورية تجارية، حيث وصل الأسطول العماني الى شواطئ بلاد فارس والصين والهند وسيلان وسومطرة وجاوا وغيرها...

وقد أصبح تعداد الأسطول الحربي العماني في هذه الفترة الثاني بعد الإنجليزي في المحيط الهندي.وفي العام 1766م أبرمت عمان حلفاً وتبادلت السفارات مع الشاه عالم الثاني حاكم (البابوريين) آنذاك، مما سمح للدولتين التصدي للقراصنة في عرض البحار معاً وتطبيع التجارة في المحيط الهندي. وخلال موسم الخريف وعندما تبدأ الرياح الموسمية، كانت عملية ابحار السفن باتجاه الهند مستحيلاً، ولذا فإن معظم الأسطول كان يتمركز في موانئ عمان. كما خفض أحمد بن سعيد الرسوم الجمركية العمانية من 10% الى 6%، ونتيجة لذلك هيمنت عمان على التجارة مع (البابوريين).وقد كانت الهند تصدر الى عمان : خشب الصندل والفلفل والعاج والقماش والأرز، بينما صدرت عمان الى الهند : الزعفران والملح والخيول واللؤلؤ والزبيب.كما توجه غواصوا اللؤلؤ من عمان الى الهند لاستخراجه من شواطئ (مالابار)، والنجارين لبناء أسطول السلطان ميسور' واتسمت سياسة أحمد بن سعيد الخارجية بالبرغماتية، الأمر الذي ضاعف من شهرته في عمان وضمان الرخاء الاقتصادي، وبفضل الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية السياسية والبحرية التي قام بها أحمد بن سعيد أضحت عمان دولة قوية، وقد ناضلت عمان من أجل مصالحها الوطنية في البر والبحر، كما تحولت مدينة مسقط عاصمة البلاد خلال عهد مؤسس الدولة البوسعيدية الى أحد أكثر الموانئ ازدهاراً في المحيط الهندي.وقد واكب سياسة أحمد بن سعيد الجمركية الاستقرار الداخلي، وبذلك اجتذبت اليها التجار من كافة أنحاء العالم. وخلال 40 عاما تقريبا من حكم أحمد بن سعيد نهضت الدولة من جديد، حيث تمكن القائد الحكيم من استعاده مجدها الغابر. وخلافاً لحكام البلاد السابقين من سلالة اليعاربة، الذين اعتمدوا على الأسطول البحري القوي، فقد اعتمد أحمد بن سعيد على الأساطيل التجارية، ولأول مرة في تاريخ عمان كانت السياسة الاقتصادية أساساً وعماداً لقوة الدولة، واذا كانت عمان في بداية عهد أحمد بن سعيد تمتلك بعض السفن القديمة، فقد استطاع في وقت لاحق من تنظيم موارد الدولة والسفن ذات الملكية الخاصة بحيث سيتمكن في حالة الضرورة من حشد مئات السفن المسلحة. وقد قال الأمير شكيب ارسلان بهذا الصدد : أحسن التدبير، وسن للمملكة قوانين مالية وتجارية واستبقى لنفسه إمارة الجيش البري، وعهد إلى رجل من خواصه بنظر الأسطول، ونظم جيشاً دائماً[2].

1) الشيخ العلامة المرحوم سالم بن حمود السيابي، كتاب عمان عبر التاريخ، الجزء الرابع، ص 319-320.
2) الشيخ العلامة المرحوم سالم بن حمود السيابي، كتاب عمان عبر التاريخ، الجزء الرابع، ص318.

الاصلاحات التي قام بها أحمد بن سعيد طالت جميع نواحي الحياة في المجتمع العماني، والنظام الإداري أصبح أكثر تطوراً وديناميكية. واعار أحمد بن سعيد لمسألة اختيار حكام الأقاليم اهتماماً خاصاً، وقد عيّن أبنائه ولاة كي يكونوا على دراية بفهم الأسرار واكتساب الخبرات، وفن إدارة شؤون الدولة. وكان لدى أحمد بن سعيد 7 أبناء منحوا لقب (السيد) وهم: (هلال، سلطان، سيف، سعيد، قيس، **محمد، طالب)**[1]. ومن بداية الفترة الإسلامية جاءت السلالة الخامسة في التاريخ العماني عن طريق أحمد بن سعيد.وكافة السلالات الأربعة الماضية (بني جلند، اليحمديين، النبهانيين، واليعاربة) السابقة لحكم البوسعيدي لم تتمكن من التغلب على الصراعات القبلية، وأصبحوا فريسة للاقتتال القبائلي وفي نهاية المطاف انزلقت السلطة من بين أيديهم.وجاء الإمام أحمد بن سعيد الى السلطة بعد سنوات من التراجع، حيث كانت البلاد مدمرة ويسود الفقر والجوع في كل مكان، ومحي الماضي المجيد من ذاكرة الأجيال.ومن أجل إحياء مجد وكرامة عمان التليد كان من الضروري اتخاذ خطوات عملية.ومن أجل حل المهام التاريخية الملحة تطلب الأمر شخصية من حجم الإمام أحمد بن سعيد، وقد أشرنا بأنه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تمكن أحمد بن سعيد وضع حد للصراعات القبلية، وتحويل وتوجيه الصراعات القبلية لصالح الدولة المركزية.وفي عهده حدث تكامل واندماج بين مختلف القبائل العربية.

وبفضل التدابير المتخذة والإصلاحات التي قام بها أحمد بن سعيد تم تعجيل إعادة الروح للأمة العمانية، والذي ساهم ذلك في مواجهة التدخل الأجنبي خصوصاً البريطاني والفرنسي والتركي والفارسي مما ساعد في توحيد الأمة العمانية.

الإمام أحمد بن سعيد كان فخوراً بشعبه وبماضيه العظيم، والذاكرة التاريخية ألهمت العمانيين العاديين، وهكذا وخلال أربعة عقود من حكمه، قام بوضع حد للصراع بين القبائل، وأنشأ اساطيلا حربية وتجارية ضخمة، ووحد البلاد في دولة مركزية واحدة. وحتى الآن يتذكر الشعب العماني الإمام أحمد بن سعيد . رحمه الله . بالخير والامتنان كمؤسس للدولة البوسعيدية المزدهرة الجديدة.

المراجع

1. من تاريخ عمان الحديث . جيريمي جانس ونيكولاس ريدآوت (كتاب باللغة الانجليزية)، جامعة كامبريدج 2015م.
2. حصاد الندوة الدولية لطرق الحرير العظيم، جامعة السلطان قابوس، ص16، مطبوعات وزارة التراث القومي والثقافة، وكذلك تاريخ عمان الحديث.
3. مصلح على العرش، سرجي بليخانوف (باللغة الإنجليزية)، لندن 2004م.
4. عمان عبر التاريخ . الجزء الرابع للشيخ العلامة المرحوم سالم بن حمود السيابي.

1) الشيخ العلامة المرحوم سالم بن حمود السيابي، عمان عبر التاريخ، الجزء الرابع، ص338.